**المحاضرة الثالثة: النخب المثقفة الجزائرية قبل وأثناء الاحتلال الفرنسي**

إن دراسة النخبة المثقفة الجزائرية بقصد الوقوف على ملامحها وأدوارها يتطلب الرجوع إلى بداية تشكلها لتتبع مسيرة تشكلها عبر مراحل حساسة من التاريخ، و يمكن تقسمها إلى أربع مراحل تاريخية:

المرحلة الأولى 1830 -1962: البدايات الجنينية الأولى لتبلور النخب المثقفة الجزائرية التي ساهمت عدة عوامل في تشكيلها وبلورتها واتجاهاتها في الواقع لقد كان المجتمع الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي يتكون من ثلاث نخب اجتماعية مسيطرة لكل منها وظيفتها ومكانتها الاجتماعية، وأن أهم ما يميزها كونها نخب تقليدية .الدخول لكنها لعبت دورا مهما ضد الاحتلال وكانت ترى فيه أنه احتلال ديني صليبي أكثر منه سياسي، وتخوفها من المساس بالإسلام جعلها تستنجد بالأتراك باسم التضامن الإسلامي، وعليه كان الوظيفة الأساسية لنخب الجزائرية في ذلك العصر هو بالدرجة الأولى

الحفاظ على الإسلام أما عن تلك النخبة فقد تمثلت حسب كتاب النخب الجزائرية للأستاذ محفوظ سماتي في ظل الاستعمار

أ- نخبة الجواد: هذه النخبة تنتمي إلى قبائل المخزن وتنتمي إليها شخصيات ثورية مثل الأمير عبد القادر الشيخ المقراني، بوعمامة.....الخ ولعل ما يميز هذه النخبة هو الجانب العسكري، واتبعت هذه النخبة إستراتيجية للحفاظ على قوتها ومكانتها الاجتماعية عن طريق توجيها أبنائها للتعليم في المدارس الفرنسية آنذاك وذلك لإعادة إنتاج نفسها، والنخبة المثقفة الناتجة عن هذه الإستراتيجية وهؤلاء الشبان الجزائريين هم الذين تكونت وتشكلت منهم النخبة المعاصرة.

ب- نخبة الحضر: المقصود بالحضر هم سكان المدن، وبعد الدخول الفرنسي للجزائر هاجر جزء منهم إلى فرنسا، ويسمون كذلك بالبرجوازيين ، كما أنهم انجذبوا وتأثروا بالحضارة الغربية.

ج- نخبة المرابطين: تلتقي هذه النخبة أساسا مع نخبة الجواد في معنى الجهاد الإسلامي، ولا غرابة في أن هذه النخبة كان لها الباع الطويل في المقاومات الشعبية ضد فرنسا، وهم ممثلو الزوايا وأتباع الطرق الصوفية : الرحمانية والقادرية والدرقاوية والقادرية الخ.....، إن هذه النخبة تجددت وأعادت إنتاج نفسها بتوجيه أبنائها للتعليم العربي الإسلامي بالمعاهد العربية الإسلامية في المشرق والمغرب وكانت النتيجة هي ظهور نخبة جديدة والتي عرفت بالتيار السلفي.

من خلال هذا السرد التاريخي يتضح اندثار النخبة التقليدية وظهور النخب الجديدة سببه فشل النخب التقليدية أمام الحنكة والقوة الاستعمارية التي عبث بالثقافة الجزائرية وأرادت طمسها.

- النخبة المعاصرة: إن هذه النخبة لها رؤية مختلفة و ذات مطالب جديدة ، وهي متكونة في الأساس إما في المدارس الفرنسية أو المعاهد العربية الإسلامية كجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فمنهم الإداري والإمام والمحامي، والمحاسب والأستاذ المكونين للنخبة المفرنسة، ومنهم المعلمين في المدارس العربية الحرة الخاصة ومن بين أهم النخب التي برزت في ذلك الوقت"الشبان الجزائريين les geunes Algériens "

وأهم ما ميز هذه النخبة هي مطالبها في تحسين أوضاع المجتمع الجزائري، وتحقيق المساواة مع الفرنسيين وحرية المعتقد ... الخ،

وعليه كانت هذه النخبة ذات طابع وطني، لها بعد سياسي لكنه اجتماعي وثقافي، وأهم ما ميزها كذلك أنها جاءت بأفكار جديدة ، أما عن تأثيرها و نجاحها داخل المجتمع فإنه لم يكن يتسنى لها ذلك، لأن غالبية أعضائها متجنسين بالجنسية الفرنسية ودرسوا في المدارس الفرنسية أو متزوجين بأجنبيات حاملات للثقافة الغربية داعين للاندماج، و قد حاولت الإدارة الفرنسية منذ الوهلة الأولى للاحتلال تكوين نواة تتولى المناداة بالاستغراب والاندماج لتسهيل مهمة الاحتلال ومن جهة أخرى نظمت إدارة الاحتلال سنة 1938رحلات إلى باريس للأعيان ولبعض الأطفال للتأثير على اتجاهاتهم وأفكارهم، وبالفعل ساهم ذلك في ظهور أدب الرحلات ذي الأهداف الدعائية، ومن أبرز تلك الأعمال رحلة مُحَمَّد ولد القاضي المعنونة بالرحلة القاضية في مدح فرنسا وتبشير البادية

وإلى جانب ذلك استخدمت الإدارة الفرنسية أسلوبا غريبا لتشكيل نخبة مثقفة "مغتربة"،وقد تمثل ذلك في خطف الأطفال سنة 1843 الذين بلغوا العاشرة من أعمارهم وحملهم إلى فرنسا وفصلهم عن ذويهم، وإدخالهم إلى مدارس مجهولة، كحقل تجارب للتأكد من قدرة الإدارة الاستعمارية على استمالة جزء من الشعب الجزائري، وتكوين طابور موال لها وقد تخرج من هذه المدرسة وغيرها بعض المترجمين والكتاب والمعلمين، الذين شكل بعضهم نواة التيار الاندماجي، الذي كان يعتقد أنه الداعي لثقافة الأنوار، وأصبح بعض هؤلاء من أكثر المدافعين عن نظام الاحتلال، بوصفه السبيل الوحيد للنهوض والتطور مما جعل هذه النخبة تقابل بالرفض، وعدم إقبال المجتمع الجزائري عليها وكانت ترى فيها تهديدا على هويتها ومعتقداتها

ولغتها وتقاليدها وثاني نخبة التي ظهرت وكان لها تأثير كبير داخل المجتمع الجزائري الحركة الإصلاحية أو ما تعرف ب : جمعية العلماء المسلمين كنخبة جديدة وعصرية أخذت بزمام الأمور كان تاريخ ظهورها في ماي 1931، لقد كانت الظروف القهرية التي تعيشها الجزائر جد صعبة وخاصة مع تصاعد النزعة الاندماجية وانتشار الخرافات والدجل من جراء السياسة التعليمية الفرنسية ، فمن بين هذه الظروف المساعدة والتي دفعت فئة مثقفة تأخذ على عاتقها مهمة حماية المجتمع الجزائري من محاولة طمس الهوية وتهدد كيانه ، إن تأثير هذه النخبة المثقفة بالأفكار الإصلاحية تعود جذورها إلى زيارة مُحَمَّد عبده للجزائر عام 1903، الأمر الذي ساعدها للإطلاع على وجه الإسلام المعاصر ، منذ تلك الفترة أخذ التيار الإصلاحي يأخذ مجراه في صنع تاريخ الحركة الإصلاحية الجزائرية، دون أن ننسى الحرب العالمية الثانية وما لها من تأثير في توعية الجزائريين من خلال مطالبتهم بتحسين الأوضاع، وعودة فئة طلبة العلم من المشرق العربي مثل الشيخ ابن باديس والشيخ الإبراهيمي متأثرين بأفكار الشيخ مُحَمَّد عبده وزميله رشيد رضا وغيرهم من المشايخ حاملين بذلك أفكار جديدة ومقتنعين بضرورة التغيير و الإصلاح.

-المرحلة الثانية 1962 أي مرحلة الاستقلال ، في حين المرحلة الثالثة بدأت مع بداية1967أي مع بداية انطلاق تجربة التنمية الجزائرية أما المرحلة الرابعة 1980 فبدأت بعد التعديل مسار التنمية، و قد شهدت حقبتين حاسمين بدأت الأولى مع شروع السلطة الحاكمة في تعديل المسار التنموي للجزائر ما أعقب ذلك من تغيرات اجتماعية وسياسية وثقافية انعكست على كافة النخب الاجتماعية بما فيها النخبة المثقفة، أما الحقبة الثانية فتميزت بالصراع الاجتماعي وتعميق الفجوة بين السلطة الحاكمة والجماهير مما جعل هذا الأخير يتخذ موقف الرافض للسلطة القائمة خاصة بعد وأد التجربة الديمقراطية في الجزائر من

خلال هذا المدخل الذي كان الهدف من وراءه ليس السرد التاريخي ، أو التأريخ لفترة، بل كان الهدف منه هو محاولة منا استقراء لدور النخبة المثقفة ومدى فعاليتها وتأثيرها داخل المجتمع الجزائري ، بشرط إذا توفرت الإرادة وفئة تحمل على عاتقها المسؤولية ، مستعدة للتضحية في سبيل قضايا الأمة

**بعض الدراسات حول النخب الجزائرية:**

يرى عبد الناصر جابي، أستاذ علم الاجتماع السياسي في جامعة الجزائر أن "القطاعية" ساهمت بشكل كبير في انعدام الفاعلية لدى النخبة المثقفة الجزائرية، التي منعتها كذلك مشاكلها الاقتصادية من أن تستسلم لإغراءات السلطة الغنية. ويرى أن التاريخ الجزائري تميز في فترات مفصلية بعملية إفراغ للمجتمع من نخبه، ويرى أن النخبة الجزائرية "من أكثر النخب انتهازية" في العالم ، والمقصود بالقطاعية هو الانقسام على المستوى الإيديولوجي واللغوي، فالمثقف لم يستقل لكن تأثيره يبقى قطاعيا، المثقف المعرب يحاور جمهورا معينا والمثقف المفرنس يخاطب جمهورا آخر، وكل واحد يستعمل لغة محددة ومفاهيم محددة ولا يتوجه إلا إلى جزء من الأمة. وعندما نصل إلى المستويات السياسية يتحول الأمر إلى قطاعية. هناك جرائد تتوجه إلى جمهور معين. جريدة "الوطن" ذات تأثير كبير جدا لكن في قطاع معين، في الفئات الوسطى والإطارات وكبار السن. أما "الشروق" فلها تأثير لدى قطاع آخر الذي يمثله المتعلمون باللغة العربية. نحن في مستويين متباينين والنتيجة هي ضعف تأثير المثقف وعدم وجود مثقفين يقومون بعملية تجسير. "المثقف الوطني" غير موجود في الجزائر لكنه موجود في تونس وموجود أيضا في المغرب وفي مصر.

أما الأستاذ نورالدين زمام فقد كتب حول المثقف أن ثنائية الخطاب الثقافي في أي مجتمع، تُخفي وراءها تباين في المواقف واختلاف في الأدوار، بحيث تجعل من المستحيل الحديث عن نخبة مثقفة متجانسة قادرة على توحيد الرؤى والأفعال خلف هذه الثنائية المتوازية تحتشد صفوف المثقفين من صناع الفكر وأهل الفن والمبدعين على طرفي نقيض، بحيث يحفلَ كل فريق بما لديه من مورد ومعين، ويحتفي كل طرف بما يجود من أثر وخطاب.، فدورنا كباحثين سوسيولوجيين، كما يقول بورديو، هو استنطاق المجتمع والاستماع إليه وليس الحديث باسمه، دون أن يعني ذلك أن يحرم أهل العلم من التعبير، وتترك الكلمة لغيرهم، ويمكن القول بأن تذبذب مواقف النخب المثقفة، وتنازلها الطوعي عن مكانتها جعلها تفقد دورها القيادي في المجتمع، والدكتور فوزي أوصديق كتب حول أزمة النخب المثقفة في الجزائر قد تكون إفرازا للعديد من الأنظمة القائمة المحبطة بداية بالبيئة التي قد تشجع الرداءة.. على حساب النوعية مما خلق نخبا تابعة ومتزلفة، فالمثقف أصبح لا دور له، والدور الوحيد الموكل له تزيين الجلسات والنشاطات بالعديد من الشطحات غير الفكرية، وأحيانا بترويج أفكار و لو على حساب قناعته ومعتقداته أما الدكتور مصطفى ماضي الذي نجده في كثير من مقالاته يتناول موضوع المثقف الجزائر، و هو يرى " أن المثقّف ليس بعالِمٍ ولا بمبدع، بل أصبح جزءاً من نظام إعلامي معولَم، وهو في معظم الأحيان يعيد إنتاج تقاليدنا القديمة في الهجاء أو المديح السياسي الطابع. وهذا وضع معاكس تماماً لمفهوم الثقافة والمثقف إذ لا نرى في الكتابات..... الظرفية الطابع إلا في حالات محدودة مساهمة فعالة في زيادة معارف الأمة وفي نهضتها يقول وهم يتحدث عن الصراع الموجود في الجزائر بين التيار

الفرونكفوني والتعريبي مخطئ من يعتقد أن بلدان أوربا الشرقية تخلصت من هيمنة السلطة الشمولية لولا عمل المثقف الانتيليجنسي بالفكر والإبداع والممارسة بالتأليف والنشر بأسماء مستعارة خارج جدار برلين، ونعتقد أن الشارع التونسي تمكن من فرض رأيه أولا وأساسا بفضل المشاركة

الفعلية والفاعلة لهيئة المحامين ورجال القانون وبعض تنظيمات المجتمع المدني الفاعلة منذ سنوات .

وفي دراسة قام بها أستاذ علم الاجتماع الدكتور مولود سعادة: إن انغلاق النخب على نفسها لا يفسح المجال للتفاعل بينها لإيجاد النفاذية المتبادلة والتنسيق المثمر، وأشار إلى خصائص نخب الجزائر منها، الارتباط العضوي للنخبة المثقفة بالأيديولوجية الرسمية، استمرار المشروعية من البعد الوطني المتماهي مع الأيديولوجية الغالبة.